﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الدُّخان: 34 - 37]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

عَظُم صدُّهم، واستفرغوا فيه وُسعَهم؛ فَذُكِّروا بمصرعِ مَن يعرفون خبرهم

لمّا كان الحديثُ في أوَّل السّورة عن كفّار مكَّة، وجاءت قصَّة فرعونَ وقومِه مَسوقةً للدِّلالة على أنَّهم مثلُهم في الإصرار على الضَّلالة والكفر، رجعَ إلى الحديث عن كفّار قريش، والغرضُ من قولهم ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ إنكارُ البعث كأنَّهم قالوا: إذا مُتنا فلا بعثَ ولا حياة ولا نشور، ثم صرَّحوا بذلك بقولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾[1]، ثمَّ ردَّ عليهم بأنَّ اللّه خالقَ السَّموات والأرض وما بينهما قادرٌ على بعثِهم، ثم توعَّدَهُم بالهلاك، كما أهلكَ قومَ تُبَّعٍ من قحطانَ ملوك اليمن، الذين هم أقوى منهم، وبه تبيَّن أنَّ اللّه هدَّد كفّار مكَّة بمصيرٍ مشؤومٍ، مثل مصيرِ قومِ فرعونَ وقومِ تبَّع[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِمُنشَرِينَ﴾: أصلُ (نشر) يدلُّ على فتح شيء وتشعُّبِه[3]، ونشَر الثَّوبَ، والصَّحيفة، والسَّحاب، والنِّعمة، والحديثَ، والمتاعَ وغيرَ ذلك؛ يَنْشُرُه نَشْرًا: بسطها، والنَّشر: الرّائحةُ الطَّيبة، وقد نَشَرت الأرضُ فهي ناشرة: أنبتت الكلأ اليابسَ، ونشَرتُ الخبرَ أنشُرُه: أذعتُه، وانتشرَ الخبرُ: ذاع[4].

وانتشارُ البشر: تصرُّفُهم في الحاجات، قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 380.
(2) الزحيلي، التَّفسير المنير: 25/ 228، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 380.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشر).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (نشر).

﴿أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: 20] ، ونَشَر الميِّتُ ينْشُرُ نُشورًا؛ أي: عاش بعد الموت، ومن ذلك يومُ النُّشور، وأنشرَهُم اللّه: أحياهُم، ونُشر الميتُ نشورًا؛ أي: بعثَهُ اللّه، قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: 15]؛ أي: إليه المبعثُ والمرجع[1]، وأنشرَ اللّهُ الميِّتَ فنَشَر، وقيل: نشرَ اللّهُ الميِّتَ، وأنشرَهُ بمعنًى واحد، والحقيقةُ أنَّ نشَر اللّه الميت مستعارٌ من نشر الثوب[2]، ومعنى: ﴿بِمُنشَرِينَ﴾؛ أي: بمبعوثين بعد موتنا[3].

2) ﴿تُبَّعٍ﴾: أصل (تبع) يدلُّ على التُّلُوِّ والقَفْوِ[4]، تبعتُ القومَ أتبعُهم تَبَعًا وتَباعَة: قفوتُ أثرَهُم، ومشيتُ خلفهم، وذلك تارةً بالجسم، وتارةً بالائتمار، وكذا إذا مرّوا بك فمضيت معهم، ومثله: اتَّبَعْتُهم، على وزن افتعلت، ويقال: أتبعتُ القومَ إذا كانوا قد سبقوكَ، فلحقتَهُم، منه قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الشعراء: 60]، وتتبَّعت الشَّيء تتبُّعًا؛ أي: تطلَّبته مُتتبِّعًا له.

و(تُبَّعٌ) كانوا رؤساءَ وملوكَ اليمن، سمّوا بذلك لاتِّباعِ بعضِهم بعضًا في الرِّياسة والسِّياسة، فقد كان كلَّما هلكَ واحدٌ خلَفَهُ واحدٌ، وتبعَهُ فيما كان على مثلِ سيرتِه، وقيل: تُبَّع مَلِكٌ يتبعُه قومُه، والجمعُ التّبابعةُ، قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يعرضُ السِّياقُ القرآنيُّ في هذه الآيات لموقف المشركين في مكَّةَ من قضية البعث والنُّشور؛ حيث يُخبر أنَّ هؤلاء المشركين من قوم النَّبيِّ ﷺ يقولون على سبيل الجزم والتَّكذيب للبعث: ما الموتةُ التي نموتُها في نهاية حياتنا الدُّنيوية إلّا الموتةُ النَّهائيةُ، وما نحن بمبعوثين بعدَها، وإذا كان من بعثٍ آخرَ فأتوا بآبائنا الأوَّلين لنراهُم إنْ كنتم صادقين في ذلك، ثم يبيِّنُ السِّياقُ القرآنيُّ بعد ذلك على سبيل التَّهديد لهؤلاء المكذِّبين للبعثِ من

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نشر).
(2) الراغب، المفردات: (نشر).
(3) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 233، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 144.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (تبع)، والبغوي، معالم التنزيل: 7/ 233، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 144.

مُشركي مكَّةَ بأنَّهم ليسوا بخيرٍ ولا بأقوى من قومِ تُبَّعٍ الحِمْيَرِيِّ، والَّذين من قبلهم منَ الأمم الكافرة، فقد كانوا أشدَّ منهم قوّةً وأكثرَ جمعًا، ومع ذلك فقد أهلكَهُم اللّه تعالى بسبب كفرِهم وطغيانِهم؛ لأنَّهم كانوا مجرمين[1].

الموتُ حقٌّ، والبعثُ حقٌّ، وهلاكُ الظّالمين مِن المكذِّبين في الدُّنيا والآخرةِ حقٌّ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصلِ قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ عن سابقه:

الفصلُ لبيان العلَّة الجالبة للدّاء، وأنَّها المؤدِّيةُ إلى سوءِ الجزاء

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ "جملةٌ مستأنَفَةٌ مَسوقةٌ للحديث عن قريش بعد استطرادِ حديثِ بني إسرائيل"[2]، فقد رجعَ السِّياق "إلى ذِكر كُفّار مكَّة؛ وذلك لأنَّ الكلامَ فيهم حيث قال: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾ [الدخان: 9]؛ أي: بل هم في شكٍّ مِنَ البَعث والقيامة، ثمَّ بيَّنَ كيفيَّةَ إصرارِهم على كُفرِهم، ثمَّ بيَّن أنَّ قومَ فِرعونَ كانوا في الإصرار على الكُفر على هذه القِصَّة، ثمَّ بيَّن أنَّه كيفَ أهلكهُم وكيف أنعَمَ على بني إسرائيل، ثمَّ رجع إلى الحديثِ الأوَّل، وهو كونُ كُفّار مكَّة مُنكِرينَ للبَعث، فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾"[3].

أو يكون الفصلُ؛ لأنَّه اعتراضٌ بين جملة: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦﴾ [الدخان: 16]، وجملةِ: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾؛ فإنَّه لمّا هدَّدهم بعذابِ الدُّخان ثمَّ بالبطشة الكبرى، وضربَ لهم المَثَلَ بقوم فرعونَ أعقبَ ذلك بالإشارةِ إلى أنَّ إنكارَ البعثِ هو الذي صرَفَهُم عن توقُّع جزاء السّوءِ على إعراضهم[4].

نكتةُ توكيد الآية بـ﴿إِنَّ﴾ واللّام:

جاء التَّوكيدُ لمواجهة ما كانوا عليه مِن صلَفٍ شديد

أوثر تأكيدُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ بـ ﴿إِنَّ﴾ لأجل

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 102، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 130 - 132.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 131.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 661 - 662.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 306.

الاهتمام بالخبر؛ فإنَّ هذا القولَ إلى المشركين لا تردُّدَ فيه حتى يحتاج إلى التَّأكيد، وهو إذا وقع مثلُ هذا الموقع أفاد التَّسبُّبَ وأغنى عنِ الفاء، فالمعنى: إنّا منتقمون منهم بالبطشة الكُبرى لأنَّهم لا يرتدعون بوعيد الآخرة لإنكارهم الحياةَ الآخرة؛ فلم يُنظَروا إلّا لِما هم عليه في الحياة الدُّنيا مِنَ النِّعمة والقوَّة؛ فلذلك قدَّر الله لهم الجزاءَ على سوء كفرهم جزاءً في الحياة الدُّنيا[1].

ثمَّ إنَّ في هذا التَّوكيد شوبًا مِنَ الغضب وكأنَّ الخبرَ لغرابَتِه يؤكَّد كما يؤكَّد الخبرُ الذي يُنكرُه النّاس[2].

نكتةُ التَّعبير باسم الإشارة للقريب ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾:

الإشارةُ للتَّحقير لبيان ما اقترفوا من إثـمٍ وجـرمٍ كبير

أوثِرَ التَّعبيرُ باسم الإشارةِ للقريب ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾؛ لأنَّ الكلامَ فيهم، وذِكرُ قصَّة فرعونَ وقومِه استطراديٌّ للدَّلالة على أنَّهم مثلُهم في الإصرار على الضَّلالة والإنذارِ عن مثل ما حلَّ بهم[3]، وفي هذه الإشارة تحقيرٌ لشأنهم وازدراءٌ بهم، فقوله تعالى: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾؛ أي: الأدنياء الأقلّاء الأذلّاء؛ ولهذا قال سبحانه بعدَها: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع (يَقولونَ):

جاء التَّعبيرُ بالمضارع (يَقولونَ) إشارةً إلى حالٍ استمرَّت لا إلى واقعةٍ وقَعَتْ، وهذا لاستحضار الصّورة والحالة، حيث تكرَّر منهم هذا القولُ، وتعدَّدَت صوَرُه.

عِلَّةُ فصلِ قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ عن سابقه:

فُصل قولُه: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ عن سابقه لأنَّه مَقولُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 307.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 635.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 63، والخطيب الشِّربيني، السِّراج المنير: 3/ 587، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 124.
(4) الطيبي، حاشية على الكشاف: 14/ 216، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 34.

القول المشارِ إليه بقوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾، فالفصلُ بين الجملتين لكمال الاتِّصال بينهما، والوصلُ هنا يوهم خلافَ المراد.

سرُّ إيثارِ النَّفي بـ﴿إِنْ﴾:

اشتدَّ على الحقِّ نكيرُهم؛ فحُقِّروا وازدُرِيَ شأنُهم

أوثِرَ النَّفيُ بـ﴿إِنْ﴾ النّافيةِ بمعنى (ما)؛ لأنَّ النَّفي بـ(إنْ) أقوى وأشدُّ مِنَ النَّفي بـ(ما)[1]، وقد جيء بها هنا للتَّعبير عن شدَّة إنكارِهم وتكذيبِهم؛ حيث إنَّهم استعلَوْا على اللّه تعالى باستِعباد خلْقِه، وكذَّبوا الرَّسولَ الذي أرسلَهُ اللّه إليهم، وكادوا يقتلونه، وسخِروا مِنَ الآيات التي جاءتهم مِن عند اللّه تعالى، وأنكروا البعثَ والحسابَ والجزاء.

سرُّ إيثارِ القصر بالنَّفي والاستثناء في ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾:

التَّعبيرُ بالقصر لبيان وفرةِ ما كانوا يحملونه مِنَ الخُبث والمكر

أوثِرَ القصرُ بالنَّفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾، وهو من أعمِّ أنواعِ القصر وأشملِها، ويكون عادةً فيما يُنكره المخاطَبُ[2]؛ لبيان وفرةِ ثقتِهم بها، ففي التَّعبير بهذه الجملة المؤكَّدةِ بيانٌ لمدى عِنادِهم وإصرارِهم، وفيها معنى أنَّهم يؤكِّدونه في وجه كلِّ مَن يُنكِرُه[3]، ومِن ذلك أنَّ أبا جهلٍ قال: يا محمَّد إنْ كنتَ صادقًا في قولِك فابعثْ لنا رجلين مِن آبائنا أحدُهما قصيُّ بنُ كلابٍ، فإنَّه كان رجلًا صادقًا لنسألَه عمّا يكونُ بعد الموت!! وهذا القولُ مِن أبي جهلٍ مِن أضعَفِ الشُّبهات؛ لأنَّ الإعادة إنَّما هي للجزاء لا للتَّكليف، فكأنَّه قال: إنْ كنتَ صادقًا في إعادتهم للجزاء فأعِدْهُم للتَّكليف، وهو كقولِ قائلٍ لو قال: إنْ كان ينشأ بعدَنا قومٌ مِنَ الأبناء، فلِمَ لا يرجعُ مَن مَضَى مِنَ الآباء[4]؟

(1) السّامرائي، معاني النَّحو: 4/ 202.
(2) السامرائي، معاني النحو: 2/ 250 - 251.
(3) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 635.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 255، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 144.

نكتةُ التَّعبيرِ بالضَّمير المنفصل ﴿هِيَ﴾:

سعى المشركون لتأكيد زعمِهم بنفي النُّشور، وأنَّه لا بعثَ لمَن في القبور

الضَّمير ﴿هِيَ﴾ ضميرُ الشَّأن، ويقال له: ضميرُ القِصَّة؛ لأنَّه يُستَعمل بصيغة المؤنَّث بتأويل القِصَّة؛ أي: لا قصَّة في هذا الغرض إلّا الموتةُ المعروفة، فهي موتةٌ دائمةٌ لا نشورَ لنا بعدها[1].

نوعُ الإضافة ودلالتُها في ﴿مَوْتَتُنَا﴾:

استهانوا بالبعث والجزاء، فاشتدَّ المرض وعظُم الدّاء

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿مَوْتَتُنَا﴾ إضافةٌ معنويَّةٌ محضةٌ، تفوح منها إرادتُهم نسبةَ الموتِ لأنفسهم وذواتِهم، دون أن يكون بتقدير اللّه تعالى؛ وذلك ليَبنوا عليه بعد ذلك إنكارَهم للبعث! وكأنَّهم قالوا: ليس الموتُ بتقدير اللّه ليكون البعثُ كذلك، بلِ الموتُ أمرٌ طبَعيٌّ لا تقديريٌّ، فلا تزعموا أنَّ بعثًا يعقبُه! وفي هذا استهانةٌ منهم بما دُعوا إليه ووُعِظوا به، فما أقبحَ قِيلَهم! وما أفدحَ فعلَهم!

نكتةُ وصفِ الموتة بـ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾:

وصَفوها بالأولى إذ ظنّوا أنَّه لا شيءَ آتٍ، فهي عندهم منتهى الأمل وغايةُ الملذّات

الأوَّل في اللُّغة: ابتداءُ الشَّيء، ثمَّ قد يكون له ثانٍ وقد لا يكون، كما تقول: هذا أوَّلُ ما اكتسبتُه، فقد تكتسبُ بعده شيئًا، وقد لا تكتسب[2].

ولمّا أُخبِر الكافرون بأنَّ عاقبة حياتِهم ونهايتها أمران: الموتُ، ثمَّ البعثُ؛ أنكروا ذلك بحصر نهايةِ الأمر في المَوتة الأولَى، ونَفَوْا ما بعدها، فكأنَّهم قالوا: ما العاقبةُ ونهايةُ الأمر إلّا المَوتةُ الأولى المُزيلةُ للحياة الدُّنيويَّة، ولا بعثَ بعدها، ووصفُها بـ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ هنا لا يستدعي أنْ يُثبِتَ الخَصمُ موتةً ثانيةً، فيقصدوا بذلك إنكارَها؛ لأنَّ كونَ الشَّيء أوَّلًا لا يستلزمُ وجودَ ما كان آخِرًا بالنِّسبة إليه، كما لو قال: أوَّلُ عبدٍ أملكُه حُرٌّ، فمتى مَلَكَ عبدًا عَتَقَ عليه، سواءً كان مَلَكَ بعدَه عبدًا آخَرَ أم لا[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 307.
(2) الإسنوي، الكوكب الدُّرِّيُّ، ص: 249.
(3) البروسوي، روح البيان: 8/ 416، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 382.

فمرادُهم مِنَ ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ - بناءً على ما تقدَّم - المَوتةُ السّابقةُ المتقدِّمة على الموعد الذي يوعَدونهُ للبعث والنُّشور، وسمَّوْها أولَى مع أنَّهم اعتقدوا أنَّه لا شيءَ بعدَها؛ لأنَّهم نزَّلوا جَحدَهم على الإثبات، فجعلوها أولَى على ما ذُكِرت لهم[1].

ولا يَبعُد أن يُحمَل على حذف المضاف، على أن يكون التَّقدير: إنِ الحياةُ إلّا حياةُ موتَتِنا الأولى، فـ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ على هذا التَّقدير صفةٌ للمُضاف، والقرينةُ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾، فالآية مِثلُ قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: 29][2].

وبيانُ ذلك أنَّه لمّا قيل لهم: إنَّكم تموتون موتةً تتعقَّبها حياةٌ، كما تقدَّمتكم موتةٌ قد تعقَّبتها حياةٌ - وذلك قولُه ﷻ: ﴿وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَاكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ﴾ [البقرة: 28] - لمّا قيل لهم ذلك قالوا منكِرين: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ يريدون: ما الموتةُ التي مِن شأنها أن يتعقَّبها حياةٌ إلّا الموتةُ الأولى دون المَوتة الثّانية، وما هذه الصِّفةُ التي تصفون بها الموتةَ مِن تعقُّب الحياة لها إلّا للمَوتةِ الأولى خاصَّةً، فلا فرقَ في المعنى إذًا بين هذا وبين قولِه: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ [الأنعام: 29][3].

نكتةُ عطفِ (ما نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ) على سابقه:

عُطفَ قولُه تعالى: (ما نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ) على سابقه؛ للاهتمام به مِن حيث كونُه غرضًا مقصودًا، مع تصريحه بمفهوم القَصر وإفادتِه تأكيدَه[4]، فقولُه تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾ هو "تأكيدٌ لِما

حشدوا المؤكِّداتِ لتوطيد زعمِهم، فاستحقّوا بطشةَ ربِّهم

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 131.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 35، والبروسوي، روح البيان: 8/ 416، والهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 382.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 279.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 308.

سبقه؛ أي: قالوا: ليس هنا مِن موتٍ سوى الموت المُزيلِ لحياتنا، ثمَّ لا بعثَ ولا حسابَ ولا نشور بعد ذلك"[1].

ولمّا كانت هذه الجملةُ توكيدًا للازمِ دلالةِ الجملة قبْلَها مِن حيث إنَّ قصرَ الموت الذي تعقبه حياةٌ على المَوتة الأولى قبلَ النَّفخ يفيدُ نفيَ الحياة الثّانية، وهذا هو معنى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾؛ لمّا كان ذلك كذلك كان الأصلُ ألّا تأتيَ هذه الواو لأنَّ الذي بين الجملتين هو كمالُ الاتِّصال؛ فالجملةُ الثّانية موصولةٌ بالتي قبْلَها مِن ذات نفسِها، وتستغني بهذا الوصل الذي في ذات نفسِها عن واصلٍ يصِلُها، وإنَّما جيءَ بهذه الواو لتفيد أنَّ هذا كلامٌ آخرُ في نفي البعث، وأنَّ البعثَ نُفِيَ بكلامَيْن وليس بكلام واحد؛ إذ إنَّه لو أُسقِطَتِ الواو لصار الكلامان كلامًا واحدًا يؤكِّدُ ثانيهِ أوَّلَه، أمّا مع الواو فثمَّ كلامان؛ لأنَّ الواو تقتضي المغايرةَ[2].

معنى (ما) ودلالاتُها في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ هي النّافيةُ الحجازيَّةُ العاملةُ عملَ (ليس)[3].

بالغَ مُنكِرو البعثِ في نفيِهِ وتكذيبِه، فاستأهَلوا عقابَ الله وتعذيبَه

غير أنَّها آكدُ في النَّفي مِن (ليس)؛ ذلك أنَّها تقع جوابًا للقَسَم، فيقال: (واللّهِ ما هو بمُنطلق) بخلاف (ليس)، وهي كذلك آكدُ في النَّفي مِن (لم)؛ فإنَّ نفيَ الفعلِ يكون على درجات، فإذا قيل: (فَعَلَ) فإنَّ نفيَه: (لم يَفعلْ)، وإذا قيل: (قد فَعَلَ) فإنَّ نفيَه: (لمّا يَفعلْ)، وإذا قيل: (لقد فَعَلَ) فإنَّ نفيَه: (ما فَعَلَ)؛ لأنَّه كأنَّه قال: (واللّه لقد فَعَلَ) فقيل له: (واللّه ما فعل).

فـ(ما) آكدُ في النَّفي مِن أُختَيْها، وهي أوسَعُ استعمالًا منهما

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 13/ 131.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 638.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 131، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 130.

أيضًا، فإنَّ (ليس) مختصَّةٌ بنفي الجُمل الاسميَّة، و(لم) مختصَّةٌ بنفي الجُمَل الفعليَّة، وأمّا (ما) فتنفي الجملَ الفعليَّةَ والاسميَّةَ، كما أنَّها قد تأتي ردًّا على قولٍ أو ما نُزِّل هذه المنزلةَ[1].

وممّا سبقَ تتبيَّنُ بلاغَةُ النَّفي - في هذا السِّياق - بـ(ما) دون غيرها؛ لأنَّها آكدُ في النَّفي مِن جهة أنَّها تنفي القَسَمَ، فكأنَّه قيل لهم: واللّهِ لَتموتُنَّ ثمَّ لَتُبعثُنَّ ثمَّ لَتُحاسَبُنَّ، فواجهوا هذا القَسَم الحقَّ بالمبالغة في نفيهِ باطلًا، ظُلمًا وعُلوًّا!

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِمُنشَرِينَ﴾:

نفى منكرو البعث أن يتعلَّق بهم أيُّ نشور، فكانوا عبرةً على مرِّ الدُّهور

الأصلُ في معنى (الباء) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، وهو تعليقُ الشَّيء بالشَّيء على وجه الاختصاص، أوِ العملِ، أوِ الاتِّصال[2]، والباء في قوله تعالى: ﴿بِمُنشَرِينَ﴾؛ لنفي تعلُّقِ الإنشارِ بهم أو لنفي اتِّصالِهم به؛ أي: وما نحن بمبعوثين بعد الموت، وقد زيدت على الخبر لأجل المبالغةِ في تأكيد النَّفي[3].

نكتةُ التَّعبير بالمشتقِّ (مُنْشَرِينَ):

عُبِّر بالمشتقِّ للدَّلالة على ثبوت حالة الإنكار مع التَّجدُّد والتَّكرار

أوثِرَ التَّعبيرُ بصيغة اسم المفعول للدَّلالة على الحدوث؛ لقربِها مِنَ الفعل، ويُستفاد مِن اسميَّتها معنى الثُّبوت؛ حيث إنَّ حالة تكذيبِ المشركين بالبعث والنُّشور ثابتةٌ، غيرَ أنَّه تكرَّر وقوعُ هذا التَّكذيب منهم لكن بصورٍ متعدِّدةٍ. "وغرضُهم مِن هذا القول المبالغةُ في إنكار حشر الموتى"[4].

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ هي الفصيحةُ؛ لأنَّها أفصَحت

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 117، والسامرائي، معاني النحو: 4/ 191 - 193.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 36/ 18، ومحمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 638.

(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 26/ 382.

عن شرطٍ مقدَّرٍ دلَّ عليه المقامُ[1]؛ لأنَّ الذي قبْلها هو حكايةُ قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾، وإنَّما يترتَّب ما بعدَ الفاء على مِثْل قولهِم الآتي بعدُ: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2]، فالتَّقدير إذًا: إنْ كنتم صادقين فيما تزعمون أنَّنا نُبعثُ بعد الموت فعجِّلوا لنا إحياءَ مَن مات مِن آبائنا لينهض دليلًا على ما تَعُدّونه مِن قيام السّاعة وبَعثِ الموتَى[3].

أفصَحتِ الفاءُ عن مقدَّرٍ دلَّ عليه المقامُ، لبيان ما كان عليه الكفّار مِن أوهام

الغرضُ من الأمر ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ وتعيينِ المخاطَبين به:

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ للتَّعجيز[4]، والخطابُ لرسولِ الله ﷺ، وللمؤمنينَ الذين كانوا يَعِدون الكافرين بالبَعث، فالمعنى: إنْ صدَقتم فيما تقولون، فأحيوا لنا مَن مات مِن أبنائنا بسؤالكم ربَّكم؛ حتَّى يكونَ ذلك دليلًا على البَعث في الآخرة[5].

جادلَ الكافرونَ في البعثِ معاجزين، فكانوا في الآخرة مِنَ المعذَّبين

وهذا أحدُ "تحدِّيات المشركين المُنكِرين للبَعث، لَمن يحدِّثونهم عنِ البَعث، ويَدعونَهم إلى الإيمان"[6].

معنى الباء ودلالتُها في ﴿بِـَٔابَآئِنَآ﴾:

(الباء) حرفٌ موضوعٌ في الأصل للدَّلالة على معنى الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا، وهو تعليقُ الشَّيء بالشَّيء على وجه الاختصاص، أوِ العمل، أوِ الاتِّصال[7]، وهي في قوله تعالى: ﴿بِـَٔابَآئِنَآ﴾ تفيدُ معنى الإلصاقِ المجازيِّ، فكأنَّهم أرادوا إلصاقَ الإتيان بالآباء، فيُفيدُ هذا معنى المصاحبة بحيث يُعادون مِن قبورهم أحياءً.

أفادتِ الباء تعلُّقَ الإحياء بالآباء

(1) الدُّرة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 679، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 131.
(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 638 - 639.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 279، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 131.
(4) ابن جزي، التسهيل: 2/ 268، والدُّرة، تفسير القرآن وإعرابه: 8/ 679، ومحمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 639.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 405.
(6) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 206.
(7) سيبويه، الكتاب: 4/ 217، والزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

فالمعنى: إنْ كان البعثُ حقًّا كما تقولون فعجِّلوا لنا بإحياء آبائنا الماضين، وأرجِعوهُم بعد موتهم إلى الدُّنيا[1].

سرُّ إيثارِ الاقتصار على ذِكر الآباء دون غيرهم:

طلبوا إحياءَ الآباء لوفور ثقتهم في الهالكين، ولكونهم على آثارهم مقتدين

التَّعبيرُ بالآباء يشملُ الوالِدين، والأجدادَ، وربَّما الأعمام، وبكلِّ ذلك جاء القرآن الكريم؛ ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: 133]، فإبراهيم جدٌّ يعقوب، وإسماعيل عمُّه، وإسحاق والدُه، ﷺ جميعًا.

وقد أوثِرَ التَّعبيرُ بالآباء دون غيرهم؛ لكون القائلين: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ يعرفونهم ويعرفون وُفورَ عقولهم؛ كي يسألوهم عمّا رأوْا في آخِرتهِم[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بأسلوب الشَّرط:

عُبِّر بالشَّرط تحدِّيًا وتعجيزًا، واستهانةً بأمر البعث واستبعادًا

التَّعبيرُ بالجملة الشَّرطيَّة يفيدُ بناءَ الجواب على الشَّرط بناءَ المسبَّب على السَّبب، والنَّتيجةِ على المقدِّمة؛ فمتى تحقَّقَ فعلُ الشَّرط تحقَّقَ جوابُه، فهو ممّا يُفيدُ التَّوكيدَ مِن هذه الجهة.

كما أنَّ هذا مِن صور التَّحدِّي التي واجَه بها المشركونَ دعوةَ المسلمين لهم، وكأنَّهم أرادوا تعجيزَهم أو تحفيزَهم؛ أي: إن أردتم أن نُصدِّقكم في هذه الدَّعوى فأتوا بآبائنا الذين قدِ انقرضوا وأسلافِنا الذين مضَوا أحياءً.

نكتةُ التَّعبيرِ بحرف الشَّكِّ ﴿إن﴾:

تُستَعمَلُ (إنْ) في المعاني المحتمَلة الوقوعِ، والمشكوكِ في كونها

(1) القنوجي، فتح البيان: 12/ 404، والمراغي، تفسير القرآن: 25/ 131، والهرري، الحدائق: 26/ 382.
(2) الثعالبي، الجواهر الحسان: 5/ 200، والبقاعي، نظم الدرر: 18/ 36، والشربيني، السراج المنير: 3/ 587.

وحُصولها، والموهومةِ والنّادرة، والمستحيلةِ وسائرِ الافتراضات الأخرى، فهي لتعليق أمرٍ بغيره عمومًا، أمّا (إذا) فالأصلُ فيها أن تكون للمقطوع بحصوله، وللكثير الوقوعِ أيضًا[1].

امتلأت نفوسُهم شكًّا وريبةً؛ فجاءَت أقوالهم عجيبةً مَعيبة

وقد آثرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ استعمالَ حرفِ الشَّكِّ ﴿إن﴾ في حكاية قولِ مُنكري البعثِ في محاورتِهم للمؤمنين: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ للإشارة إلى شكِّهم في صِدق المؤمنين، وكأنَّ البعثَ أمرٌ نادرُ الوقوع، أو هو مقطوعٌ بعدمه، وإنَّما يفترضُه المؤمنون كما يُفتَرَضُ المُحالُ[2].

نكتةُ تقديمِ ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ على ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

قُدِّم قولُه تعالى ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ على قولِه ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ للاهتمام به، فهو المقصودُ لهم، حيث إنَّهم أرادوا التَّعجيز مِن حيث إنَّهم طلبوا مُحالًا في اعتقادهم، ثمَّ ثنَّوْا بما يُنبئ عن شكِّهم في صِدق المؤمنين.

التَّقديمُ للاهتمام؛ لبيان تعظيمِهم الآباءَ مع جحودِهم لأمر السَّماء

وقد "جعلوا قولَهم: ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ حُجَّةً على نفي البعث بأنَّ الأمواتَ السّابقين لم يرجع أحدٌ مِنهم إلى الحياة! وهو سفسطةٌ؛ لأنَّ البعثَ الموعودَ به لا يحصلُ في الحياة الدُّنيا، وهذا مِن تورُّكهم واستهزائهم[3].

فالحاصلُ أنَّ تلك الشُّبهةَ "شبهةٌ واهيةٌ لم يُعنَ القرآنُ بردِّها، وإنَّما أشار إشارةً خفيَّةً إلى أنَّ هؤلاء النّاس قومٌ مغرورون بدُنياهم وما هم فيه؛ فضَرَبَ لهم الأمثالَ بقوم تُبَّع ومَن هُم أشدُّ منهم قوَّةً وأكثرُ جمعًا، ومَن هُم أشدُّ في إثارة الأرض وعمارتِها؛ لأنَّ هذا الغرور يمنعُهم مِنَ التَّفكير السَّليم فيما وراءَ الحياةِ الدُّنيا"[4].

(1) الزمخشري، المفصَّل، ص: 440، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 5/ 113، والسامرائي، معاني النحو: 4/ 69 - 71.

(2) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 639.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 308.

(4) محمود حجازي، التفسير الواضح: 3/ 418.

سرُّ إيثارِ التَّعبير بالكون الماضي ﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ دون (إن صدقتم):

شكَّك المنكِرون في كلِّ ما أخبر به المؤمنون

أوثرَ التَّعبيرُ بالكون الماضي في حكاية محاورةِ الكافرين: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ لأنَّهم أرادوا: "إن كان طبْعُكم الصِّدقَ في كلِّ ما تحدَّثتم به عنِ الدِّين الذي تزعمون، وهذا يعني أنَّ كلمة ﴿كُنتُمْ﴾ تجاوزتِ المعنى الذي فيه الكلامُ وهو البعثُ إلى كلِّ ما يتَّصل بالدِّين الذي يدعونهم إليه؛ لأنَّها تفيدُ أنَّ خبرَها قد دُمِج في اسمها وصار جزءًا من ماهيَّته"[1]؛ فمرادُ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؛ أي: "ثابتًا صِدقُكم"[2].

علَّةُ فصلِ قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ عن سابقه:

استئنافٌ لضرب مثَلٍ بقومٍ مُهلَكين، لقربِهم حالًا بالمذكورين

فُصِل قولُه تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه "استئنافٌ ناشئٌ عن قوله: ﴿*وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الدخان: 17]؛ فضميرُ (هُمْ) راجعٌ إلى اسم الإشارة في قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾، فبَعدَ أن ضَرَبَ لهم المَثَل بمَهْلِك قوم فرعونَ زادهم مَثَلًا آخرَ هو أقربُ إلى اعتبارهم به، وهو مَهْلِكُ قومٍ أقربَ إلى بلادهم مِن قوم فرعونَ، وأولئك ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ فإنَّ العربَ يتسامَعون بعَظَمة ملكِ تُبَّع وقومِه أهل اليمن، وكثيرٌ مِنَ العرب شاهَدوا آثار قوَّتِهم وعظمتِهم في مراحلِ أسفارِهم وتحادثوا بما أصابَهم مِنَ الهُلْك بسيل العَرِم"[3].

نوعُ الاستفهام، والغرضُ منه في ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾:

استفهامُ إنكارٍ للتَّصغير والتَّحقير، أو تقرير للتَّهديد والتَّحذير

يصحُّ أن يكون الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ إنكاريًّا توبيخيًّا[4]؛ أي: ليس هؤلاء بأقوى ولا أكثرَ عُدَّةً مِن قوم تُبَّعٍ

(1) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 639.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 18/ 36.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 308، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 601.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 131، ومحمود صافي، الجدول: 13/ 131، والهلال، الثري الجامع: 10/ 435، ومحمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 640.

والمُتقدِّمين مِنَ الأُمَمِ المُهلَكَة، وقد أُهلِكَ أولئك بجُرْمِهم، وهؤلاء الكافرون مُجرمونَ أيضًا؛ فحريٌّ أن يُفعل بهم كما فُعِلَ بأشياعهم مِن قبل[1].

ويصحُّ أن يكون الاستفهامُ تقريريًّا متضمِّنًا للوعيد[2]؛ إذ لا يسَعُهم إلّا أن يعترفوا بأنَّ قومَ تُبَّع والذين مِن قبْلِهم كانوا أشدَّ منهم قوَّةً وأكثرَ جمعًا؛ لأنَّهم كانوا يَضربونَ بهم الأمثالَ في القوَّة والمَنَعة، فهو بمعنى قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: 43]، وقد افتُتِح الكلامُ بالاستفهام التَّقريريِّ لاسترعاءِ الأسماع لمضمونِه؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يعلَمُ أنَّ تُبَّعًا ومَن قبلَه مِنَ المُلوك خيرٌ مِن هؤلاء المُشركين[3].

نكتةُ تقديمِ المسند إليه ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾:

قُدِّم المسندُ إليه في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ للاهتمام، وليتوجَّه إليه الإنكارُ والتَّوبيخ؛ فهو الأصلُ المتحدَّثُ عنه، وليتمكَّن الخبرُ في ذهنِ السّامع؛ لأنَّ في المبتدأ تشويقًا إليه.

التَّقديمُ للاهتمام، وليتوجَّه إلى المتقدِّم التَّوبيخُ والملام

دلالةُ استخدام ﴿أَمْ﴾:

﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ عاطفةٌ متَّصلةٌ، عطفت جملة: ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ على ما قبْلها[4].

و﴿أَمْ﴾ المتَّصلةُ هذه إنَّما يُطلب بها التَّعيينُ؛ أي: تعيينُ أحدِ المذكورين، فمَعناها هنا: أيُّهما أشدُّ قوَّةً وأكثرُ جمعًا: هؤلاء أم قومُ تُبَّع[5]؟ والمرادُ بهذا السُّؤال - كما تقدَّم - إمّا التَّوبيخُ والإنكارُ، والغرضُ: نفيُ كونِ المذكورين أقوى أو أحسنَ حالًا مِن قوم تُبَّع، وإمّا

لم يكن المذكورون أفضلَ مِن قوم تُبَّع حالًا، ولا خيرًا منهم مآلًا

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 20/ 114، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 13/ 331، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 144.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 75، والبروسوي، روح البيان: 8/ 418، والهرري، الحدائق: 26/ 383.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 308.

(4) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 10/ 508.

(5) الزمخشري، المفصَّل، ص: 404، وابن يعيش، شرح المفصَّل: 5/ 17، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 246.

يُراد بالسُّؤال التَّقريرُ، والغرضُ: أن يُقِرَّ المخاطَبون بهذا فيكون إقرارُهم - الذي لا يسَعُهم أن يَنفوهُ - حُجَّةً عليهم.

نوعُ الإضافة ودلالتُها في ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾:

تعريفُ المضاف، وردعٌ مَن كان يعقلُ أو يخافُ

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ إضافةٌ معنويَّةٌ محضةٌ، وقد أفادت المضافَ التَّعريفَ، والغرضُ منها تهديدُ الكافرين مِن أهل مكَّة ومَن حولها بالمصير نفسِه إذ ذكَّرتهم الآية مصارعَ قومٍ ليسوا منهم ببعيد.

نكتةُ تعليقِ الإهلاك بقوم تُبَّع دونه:

يُثني الله خيرًا على المؤمنين، ولا يأخذ قومًا بذنب آخرين

تُبَّعٌ لقبُ مَن يملِكُ اليَمَنَ: حِمْيَرَ، وسبَأ، وحضرَموتَ، ولا يُقال له تُبَّعٌ إلّا إذا مَلَكَ هذه الثَّلاثة، وهذه الثَّلاثةُ مِنَ الأُمَمِ القديمة القويَّة[1].

وتُبَّعٌ المذكورُ في القرآن كان مؤمنًا، وكان له بمكَّة المشرَّفة ما ليس لغيره مِنَ الآثار[2]، ودليلُ إسلامه ما رويَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «لا تَسُبّوا تُبَّعًا فإنَّه كانَ قدْ أسلَمَ»[3].

وتعليقُ الإهلاكِ بقوم تبَّعٍ دونَه هو يقتضي أنَّ تُبَّعًا نجا مِن هذا الإهلاك، وأنَّ الإهلاكَ سُلِّط على قومه دونَه[4]؛ ذلك أنَّ قومَه كانوا كافرين؛ فلذلك ذمَّهم اللّه تعالى في القرآن دونَه[5]، وقد قالت أمُّ المؤمنين عائشة ﵂: «إنَّ اللّهَ ذمَّ قومَه ولم يَذُمَّه»[6].

سرُّ إيثارِ ذِكْرِ قوم تُبَّع دون غيرهم:

قنطرةُ الإيمان تُنجّي صاحبَها مِنَ الرَّدى، والمتَّقون هم السُّعداء غَدا

قومُ تُبَّعٍ هم حِمْيَر وأهلُ سبأ، وقد أهلكهم اللّه ﷻ وفرَّقهم في

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 309، وأبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 641.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 37.
(3) أحمد بن حنبل، المسند، حديث رقم: (23346).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 309.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 64.
(6) الحاكم، المستدرك، حديث رقم: (3702).

البلاد شَذَرَ مَذَرَ، كما ذُكِر مفصَّلًا في سورة (سبأ)[1]، وهم أقربُ المُهلَكين إلى قريشٍ زمانًا ومكانًا[2]، ولذلك أوثِرَ ذِكرُهم هنا في مقام التَّهديد والوعيد.

والأقوامُ والأممُ الذين ذُكِروا في القرآن في مقام التَّهديد بالأخذ والاستئصالِ ليس لهم ملوكٌ إلّا قومُ فرعون وقومُ تُبَّع، وبينهما فارقٌ كبير؛ فقومُ تُبَّعٍ كفروا برغم إيمان سيِّدهم وكبيرِهم، فأنجاهُ الله تعالى وأهلكَهم، وبالعكس كان قومُ فرعونَ الذين كفروا بما جاءهم به موسى عليه السلام، واتَّبعوا سيِّدَهم وكبيرَهم، فأوردَهم سيِّدُهم الموارِدَ في الدُّنيا والآخرة!

وسورةُ الدُّخان هي السّورةُ الوحيدةُ التي جمعت في خطاب قريشٍ بين هذين الضَّربين مِنَ الملوك: ملِكٍ أضلَّ قومَه وما هدَى، وملِكٍ اهتدى وضلَّ قومُه فلم يهتدوا[3]!

وفي هذا خيرُ دليلٍ على ما يفعله الإيمانُ بصاحبه، وما يجرُّه الكفرُ على مَن تضمَّخ به مِنَ الويلات والحسرات! فلا ينتفع كافرٌ بقرابته لمؤمن، ولا تضرُّ المؤمنَ قرابتُه للكافر، فلا أنسابَ بينهم يوم القيامة، ولا يسألُ حميمٌ حميمًا!

دلالةُ الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

أفادَ العطفُ الجمعَ والتَّشريك في علَّة الإهلاك

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يحتملُ أن تكون عاطفةً لِما بعدها على قوله ﴿قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ لقصد التَّشريك في الحكم وهو الإهلاكُ، فالجميع قد أُهلِكوا بسبب كفرِهم وعنادِهم وتكبُّرِهم على رُسلهم، والغرضُ من هذا التَّشريك الإبلاغُ في التَّهديد، والمعنى: أنَّهم ليسوا خيرًا من قوم تُبَّع ومَن قبلَهم مِنَ الأمم الذين

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 420.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 37.
(3) محمد أبو موسى، آل حم: (الشورى، الزخرف، الدخان)، دراسة في أسرار البيان، ص: 643 - 644.

استأصَلَهُم الله لأجل إجرامهِم، فلمّا ماثلوهم في الإجرام فلا مزيَّةَ لهم تدفعُ عنهم استئصالَ الذي أهلكَ اللهُ به أممًا قبْلهم[1].

ويحتملُ أن تكون استئنافيَّةً والموصولُ بعدها مبتدأ وخبرُه جملةُ ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالموصول وصلتِه في ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالموصول وصلتِه في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾؛ لإرادة الوصفِ بما تضمَّنتْه جملةُ الصِّلة، فهؤلاء جميعًا الذين جمَعهُم قولُه تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ قد جمَعهُم مصيرٌ واحد، وهو الإهلاكُ عقوبةً مِنَ الله تعالى بسبب عظيمِ جُرمهِم في الكفر.

جمعَ السّابقين مصيرٌ واحد، فالإهلاكُ عقوبةٌ كلِّ كافرٍ وجاحد

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾:

الأصلُ في معنى (مِن) أنَّه موضوعٌ للدَّلالة على ابتداءِ الغاية[3]، وقد جيء بها هنا لإفادة امتدادِ الحدَث؛ فالحديثُ عن مَن كانوا قبلَ قومٍ تُبَّع؛ كقوم هودٍ، وصالحٍ، ونوحٍ، وغيرِهم مِنَ الأمم الكافرة الذين جمَعهُم بإيجازٍ وإبداعٍ قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

لم تنجُ من عذاب الله أُمَّةٌ كفرت

فكأنَّه قد جُعِلتِ القبْليَّةُ هي المكانَ الذي ابتُدِئَ منه إهلاكُ الكافرين المكذِّبين، فيشمَلُ ذلك كلَّ مَن سبقَ المخاطَبين ممَّن هذه صِفتُه؛ ليَعلموا أنَّهم ليسوا بدعًا منهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالقبْليَّة في ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾:

عُبِّر بالقبْليَّةِ في قوله ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ليشمَلَ كلَّ مَن صحَّ أن ينطبقَ عليه مفهومُ الآية، "فمِن قبْلِ قومِ تُبَّعٍ أهلكَ اللهُ تعالى قومَ نوح، وأهلكَ عادًا، وثمودَ، وأصحابَ مدين، وقومَ لوطٍ، وهؤلاء ممَّن ذَكَر القرآنُ أخبارَهم، وهناك كثيرون مِنَ الأفراد والجماعات

سُنَّة الله في خلقهِ ماضية، وآياتُه للعالمين هادية

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 25/ 308.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 626.

(3) سيبويه، الكتاب: 4/ 224، والزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.

لم يُذكَروا؛ إذ ليس المقصودُ مِنَ الذِّكر إلّا العبرةَ والعِظَة، وفي هذا القليل الذي ذُكِر عبرةٌ وعِظَةٌ لأولي الألباب"[1].

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لقوله تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾:

ثراءُ الدَّلالات بتعدُّد التَّوجيهاتِ والتَّأويلات

يجوز أن يكون قولُه تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾ خبرًا لقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، فيكون الوقفُ حينئذٍ على ﴿قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾، والابتداء بـ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾.

ويجوز أن يكون قولُه تعالى: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾ استئنافًا، أو حالًا مِنَ الضَّمير المسْتَكنِّ في الصِّلة، بحيث يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ معطوفًا على قوله سبحانه: ﴿قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾، فيكون الوقفُ على ﴿قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، والابتداء بـ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾[2].

وبحسب الوجه الأوَّل فإنَّ المقارنة معقودةٌ بين منكِري البعثِ وقومِ تُبَّعٍ فقط، وبحسب الوجه الثّاني فإنَّ المقارنة معقودةٌ بين منكِري البعثِ وقومِ تُبَّعٍ والذين مِن قبلِهم جميعًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي مسندًا إلى نون العظَمة ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾:

ما يُنسَبُ إلى العظيم جليلٌ وعظيم

عُبِّر بالماضي مُسندًا إلى نون العظَمة ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾؛ لبيان عظمتِه، وشدَّةِ بطشه، وطلاقةِ قدرته ﷻ؛ فالمعنى: لقد أهلكناهم بعظمَتِنا وإن كانوا عظماءَ أشدّاء لا يرون أحدًا أشدَّ منهم قوَّةً، ولا يُدانيهم هؤلاءِ فيما كانوا عليه[3].

ثمَّ إنَّ إهلاكهم كان عظيمًا، فهُم كما قال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ [العنكبوت: 40].

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 13/ 208.
(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1147، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 5/ 577، والسَّمين الحلبي، الدرُّ المصون: 9/ 262.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 38.

علَّةُ فصلِ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾:

فُصِل قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه تعليلٌ لمضمون جملة ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾، فهو استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤالٍ مقدَّر، وهو: لماذا أُهلِكوا؟ فالجواب: بسبب إجرامهم؛ أي: شِركِهم مع ما كانوا عليه مِن غاية القوَّة والشِّدَّة، فمِن بابٍ أولى أن يهلك هؤلاء المُنكِرون للبعث وهم شركاءُ لإخوانِهم السّابقين في الإجرام، وأضعَفُ منهم في الشدَّة والقوَّة[1].

المعاصي بريدُ النِّقم، وحالقة النِّعم

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة المؤكَّدة بـ(إنَّ):

أوثِرَ التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة التي تفيد الثُّبوتَ لإفادة ثباتِهم على الإجرام ورسوخِ قدمِهم فيه، وجاءت (إنَّ) لإفادة التَّأكيد مِن حيث إنَّها تقوم مقامَ تكرير الجملة مرَّتين، إلّا أنَّها أوْجَزُ وأخصَرُ مع حصول الغرض مِنَ التَّأكيد[2].

أنزل الله بالمجرمين شديدَ عقابه، ولم ينجُ أحدٌ مِن عذابه

سرُّ إيثارِ التَّعبير بالإجرام دون الظُّلم أو الكفر أوِ الإفساد ونحوِ ذلك:

تدور معاني الإجرام حول القطع، وأصلُه: قطعُ الثَّمر عنِ الشَّجر، واستُعِير لكلِّ اكتسابٍ، ومنه: جَرَمَ؛ أي: كسب؛ لأنَّ الذي يحوزه فكأنَّه اقتطعه، وغلبَ ذلك في المكروه، فالجُرمُ والجريمة: الذَّنبُ؛ لأنَّه كسْبٌ، والكسبُ اقتطاعٌ، وأجرمَ: جنى جنايةً[3].

في الإجرام تعمُّدٌ للعِصيان، وإصرارٌ على الكفران

وقد أوثِرَ التَّعبيرُ بالإجرام هنا لإفادةِ معنى قصدِ المعصية وتعمُّدِ الكفر والإصرار عليه، ثمَّ إنَّ هناك تشابُهًا بين قوم فرعونَ وقوم تُبَّع، فكِلاهُما وُصِفَ بالإجرام، أمّا قومُ فرعونَ فقد جاء فيهم قولُه تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾، وأمّا قومُ تُبَّعٍ والذين مِن

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 64/ 8.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 526.
(3) ابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، اللِّسان: (جرم).

قبلهم فقد جاء فيهم قولُه سبحانه ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

النُّشورُ والبعث والإحياء:

الإحياءُ جَعْلُ الحياة تدبُّ في الخَلْق، والبعثُ إخراجُهم من قبورهم إلى الموقف، والنُّشورُ ظهورُ المبعوثين وظهورُ أعمالِهم للخلائق

الباء والعين والثّاء أصلٌ واحدٌ، وهو الإثارةُ[1]؛ فأصلُ البعث إثارةُ الشَّيء وتوجيهُه، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: 36]؛ أي: يُخرِجهُم ويُسيِّرهم إلى القيامة، ويقال: بعثتُ البعيرَ، أي: أثرتُهُ وسيَّرتُهُ، وبعَثَ اللّهُ الموتى، أي: أقامَهُم للحشر[2].

والنّونُ والشِّينُ والرّاءُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على فتحِ شيءٍ وتَشَعُّبِه، ومنه: نشرتُ الكتاب: خلاف طوَيتُه[3]، والنَّشْر في الأصل: بسطُ الشَّيء ومدُّه، ونقيضه: الطَّيُّ[4]، والمعنى المحوريُّ لجَذرِه: تَفريقٌ ببَسطٍ ومدٍّ[5].

ويتبيَّن ممّا سبقَ أنَّ الإحياء: أن يجعلَ اللّهُ الحياةَ تدبُّ في الخَلْق، وبعْثُ الخَلْق: اسمٌ لإخراجهم من قبورهم إلى الموقف، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس: 52]، والنُّشور: اسمٌ لظهور المبعوثين، وإنشارُهم يعني: جعْلَهم ينتشرون في الأرض بعد بعثِهم، ويتفرَّقون فيها حتى يجمعَهم موقفُ الحشر؛ لتُنشرَ فيه صحائفُ أعمالهم، ومنه قيل: نشرتُ اسمك، ونشرتُ فضيلة فلان، إلّا أنَّه قيل: أنشرَ اللّهُ الموتى (بالهمزة)، ونشرتُ الفضيلةَ والثَّوب للفرق بين المعنيَين[6].

---

(1) ابن فارس، المقاييس: (بعث).
(2) الراغب الأصفهاني، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بعث).
(3) ابن فارس، المقاييس: (نشر).
(4) ابن الجوزي، نزهة الأعين، ص: 583.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نشر).
(6) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 289، وعبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 288.

الإهلاكُ والتَّدمير والإفناء:

في الإهلاك كَسرٌ وإسقاط، والتَّدميرُ إدخالُ الهلاك على الشَّيء، وفي الإفناء قَطع

الفرقُ بين الثَّلاثة أنَّ أصل التَّدمير: إدخالُ الهلاك على الشَّيء[1]، يقال: دَمَر القومُ دمارًا، أي: هلكوا بدخول الهلاك عليهم[2]؛ وهذا يرجع إلى ما يدلُّ عليه جذرُ الكلمة: وهو الدُّخول في البيت وغيره؛ يقال: دَمَرَ الرَّجلُ بيتَه، إذا دخلَه[3]، أمّا الإهلاك فجذرُه يدلُّ على كسرٍ وسقوط[4]؛ ولذلك يقال للميِّت: هلَك، ومَن أُهلِكَ فقد كُسِر فسَقط، وأمّا الإفناء: فهو القَطع؛ يقال: أفناه اللّهُ، أي: قَطعه وذهبَ به، ومَن فَنيَ، فقد قُطِع عنِ الحياة فانقطعَ عنها[5]، والفاني: الشَّيخ الكبير الهَرِم، ويقال: فَنِيَ فلانٌ: هَرِم وأشرفَ على الموت هَرَمًا؛ أي: قُطِعَت عنه قوَّةُ الشَّباب[6]، ويقال: هو مِن أفْناءِ العرب، إذا لم يُدْرَ مِمَّن هو[7]؛ فكأنَّه مقطوع النَّسب.

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (دمر).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (دمر).
(3) ابن فارس، المقاييس: (دمر).
(4) ابن فارس، المقاييس: (هلك).
(5) ابن فارس، المقاييس: (فني).
(6) ابن منظور، اللسان، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فني).
(7) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس: (فني).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والخمسون،
سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 54 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-02-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 54 : المجلد الرابع والخمسون، سورة الزُّخرُف من الآية 37 إلى سورة الجاثِية الآية 15.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-02-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-8769435 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"